الالتزام الإسلامي في تائية دعبل أنموذجاً

م. د. إسماعيل خليل أبو صالح الماضي
جامعة الإمام جعفر الصادق(ع) كلية القانون

Islamic commitment in Tai Dabel as a model

Dr. Ismail Khalil Abu Saleh Almadi
Imam Jaafar Al – Sadiq University Faculty of Law
esmael.Khali@sadiq.edu.iq

المُلخص

يعد الأدب مسرحاً للصراع بين الفن والبنية الإجتماعية والدينية، لذلك لم تكن فكرة الالتزام نتيجة الحداثة، إذ يرجح الفقهاء أن الفن نشأ في كنف العقيدة أو الأيديولوجية الدينية، والالتزام هو اتخاذ موقف من النزعات السياسية والإجتماعية معبراً عن أيديولوجية طبقية أو حزبية أو نزعة، بغية الإسهام في حل المعضلات الإجتماعية. وتحتوي العقيدة الإسلامية على الالتزام الأخلاقي الديني الهادف إلى أسعاد الناس في الدارين، فالإسلام يتلاقى مع الالتزام في خدمة المجتمع على أسس سليمة، فإذا كان الأديب ملتزماً بالإسلام متماشياً لما منعت التعاليم عن ترويجه من أفكار منحرفة وعقائد إلحادية مثيرات للفتنة بين الناس أو للشهوات المحرمة، فأنه ينقل إلى المجتمع ميراث الخير، السعادة، الإباء، والعزة، أما إذا كان الأديب غير مبالياً بالعقيدة الإسلامية فأنه يسوق الأفراد نحو الغريزة والعاطفة غير المقيدة بحدود الأخلاق.

ويعد "محمد دعبل بن علي بن رزين الخزاعي" من أبرز الشعراء الذين حملوا راية الدفاع عن مبادئهم بلا هوادة، حيث نبغ في الشعر الهجائي الذي لم يسلم منه الخلفاء الطغاة من بني العباس، ولا ذويهم ووزرائهم، كما كرس شعره في الدفاع عن مظلومية آل البيت(ع)، وقارع السلطة الجائرة، وكان يفيض قوة وإقداماً في الدفاع عن عقيدته كلما زادت الدولة المستبدة في ملاحقته.

الكلمات المفتاحية: الالتزام الإسلامي، تائية دعبل، العقيدة ، البناء اللغوي، لغة التضاد

Abstract

Literature is a scene of conflict between art and the social and religious structure, so the idea of commitment was not the result of modernity, as jurists suggest that art originated in the shroud of religious belief or ideology, and

commitment is to take a position on political and social tendencies expressing a class or partisan ideology or tendency, in order to contribute in solving social dilemmas. The Islamic faith contains religious moral commitment aimed at making people happy in both worlds. Islam converges with commitment to community service on sound foundations. If the writer is committed to Islam in line with what the teachings prevented from promoting deviant ideas and atheistic beliefs that stir up strife among people or forbidden desires, then he transmits to society the inheritance of goodness, happiness, pride, and pride, but if the writer is indifferent to the Islamic belief, then he drives individuals towards instinct. And passion that is not constrained by the boundaries of morality. And "Muhammad Dabel bin Ali bin Razin Al – Khuza'i" is considered one of the most prominent poets who carried the banner of defending their principles relentlessly. And he fought the unjust authority, and he was overflowing with strength and courage in defending his belief whenever the tyrannical state increased his pursuit.

Key words: Islamic commitment , Tai Dabel , Creed , Linguistic construction , Contrast language .

المقدمة

إن الأدب الإسلامي ينبثق من التعاليم الإلهية والتشريعات الدينية، من جهة، ومن ذات الشاعر المسلم الملتزم الذي يصور الخالق والمخلوقات من خلال تصور الإسلام، من جهة أخرى، لأن المؤمن الحق لا ينفصل عن ذاته عند إبراز فكره وفنه سواء في المدح أو الرثاء أو الغزل أو الشعر السياسي، وأن آثاره الأدبية ومعتقداته ترتبط بتلك الذات القوية المتماسكة، فالالتزام من ضمن المؤثرات الثقافية التي تشترك في تكوين شخصية الأدباء وآدابهم، ويعد "دعبل الخزاعي" من الشعراء الذي يمتازون بالذائقة الأدبية المبنية على الالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم السامية، فقد ركز في أشعاره على مدح الرسول(ص) والتوجع على الجور الذي وقع على آل البيت(ع)، وتعداد مناقبهم ومحاسن أخلاقهم ورثائهم، مقابل هجاء الخلفاء والأمراء من أعدائهم في لغة شعرية تقوم على الطلل والرثاء والبكاء والحسرة والتألم.

أهمية البحث

تنطلق أهمية البحث من إدراك طبيعة الالتزام الإسلامي في البناء الشعري، لأن الشاعر يؤثر في التركيبة الأخلاقية والقيمية في المجتمع لذلك وضع الدين الإسلامي التزامات محددة ينبغي على الشاعر الملتزم اتباعها، بالإضافة إلى شخصية الشاعر "دعبل الخزاعي" باعتباره أنموذجاً للشاعر الإسلامي الملتزم الذي ناضل في سبيل الحقوق الموصي بها من الرسول(ص) إلى أهل البيت(ع).

إشكالية البحث

يتمحور البحث حول إشكالية مفادها: "**طبيعة الالتزام الشعري في الشريعة الإسلامية: تائية دعبل أنموذجاً**". وعليه تتضح التساؤلات التالية، وهي:

- ما هي طبيعة الالتزام الذي ينص عليه الدين الإسلامي في الشعر؟
- ما هو مفهوم الالتزام الشعري عند "دعبل الخزاعي" خاصة في قصيدة "التائية"؟

منهج البحث

اعتمد البحث على المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي لاستنباط الحقائق وتتبع التطورات حول طبيعة الالتزام الشعري في الشريعة الإسلامية، فضلاً عن التزام الشاعر "دعبل الخزاعي" في قصيدة "التائية" حيث دافع من مبادئه وقيمه في الذود عن حقوق أهل البيت(ع).

هيكلية البحث

اشتمل البحث على ملخص، ومقدمة، وخاتمة، كما تضمن مبحثين، إذ في المبحث الأول: "**ماهية الالتزام الإسلامي في الشعر**". والمبحث الثاني: "**الالتزام الإيجابي في تائية دعبل**".

المبحث الأول

ماهية الالتزام الإسلامي في الشعر

يعد الالتزام من ركائز المذهب الأدبي الإسلامي، إذ يصف الخالق والمخلوق والكون وفق التعاليم الإسلامية والقيم التشريعية، كما يشترط في الأدب الإسلامي الملتزم أن يكون قائله مسلماً يؤمن بالله وشرائعه، وبما أن أغلب رواد الشعر العربي من المسلمين فقد اتصفوا علناً بالسمات الإسلامية، غير أن الدولة الإسلامية مرة بمراحل من الانحراف السلطوي أثرت على طبيعة السلوك الشعري، إذ أن الدولة الأموية مارست القمع والبطش بحق المعارضين، مما دفع الكثير من الشعراء إلى العزوف عن تمجيد الرموز والقيادة الإسلامية ذات التأثير في الدعوة، مثل أهل البيت(ع)، وبعض الشعراء تجاوزوا حد الالتزام بالمبالغة والإفراط في مدح رموز فاسقة، وتجريح حق الغير، وإيراد التشبيه بالمحرمات.

لكن انهيار الدولة الأموية الدموية أعطى الشعراء في العصر العباسي مساحة معينة لإعادة ترتيب البناء الشعري القائم على الإلزام بتعاليم الإسلام وقيمه ومنهجه في أعمالهم الأدبية، حيث تناول بعض الشعراء الأغراض الشعرية المدح والرثاء والغزل والشعر السياسي لكنه لم يخرجهم من حوزة الإسلام، ولا أدبهم من الأدب الإسلامي، بل جعلهم أدباء ملتزمين في بعض القصائد وغير ملتزمين في غيرها.

لذلك نقسم هذا المبحث على مطلبين، هما: المطلب الأول، مفهوم الالتزام الشعري الإسلامي. والمطلب الثاني، مقومات الالتزام عند الشاعر دعبل.

المطلب الأول

مفهوم الالتزام الشعري الإسلامي

يدل الالتزام الشعري على التصور الشامل للشاعر في نظرته إلى مجل قضايا الحياة القائمة على الوعي والأدراك العلمي، وربطها بإيجابية بالواقع المعاصر في ظل التشخيص الممنهج للمشكلات التي تعترض عملية النهوض البشري والتطور الحضاري، ويؤشر الالتزام الشعري في الإسلام كل المعاني القيمة التي تحفظ للدين الإسلامي الحنيف عظمته، فضلاً عن فهم التعاليم الإسلامية وأهدافها السامية. وبناء عليه، سوف نقسم هذا المطلب على فقرتين، هما: الفقرة الأولى، تعريف الالتزام الإسلامي وآثاره. والفقرة الثانية، التمايز ما بين الالتزام والإلزام.

الفقرة الأولى: تعريف الالتزام الإسلامي وآثاره

يعرف الالتزام لغوياً بأن مصدر من الفعل "اِلْتَزَمَ"، وهو من مادة الفعل الثلاثي "لَزِمَ" على وزن "فِعْلٌ" بكسر العين، وجاء في "لسان العرب" أن الفعل "لَزِمَ: اَللُّزُومُ: مَعْرُوف. وَالْفِعْلُ لَزِمَ يُلْزِمُ، وَالْفَاعِلُ لَازِمٌ وَالْمَفْعُولُ بِهِ مَلْزُومٌ، لَزِمَ اَلشَّيْءُ يَلْزَمُهُ لَزِمَا وَلُزُومًا وَلَازِمهُ مُلَازِمَةً وَلِزَامًا وَالْتَزَمَهُ وَأَلْزَمَهُ إِيَّاهُ فَالْتَزَمَهُ. وَرَجُل لَزِمَهُ: يُلْزِمَ اَلشَّيْءُ فَلَا يُفَارِقُهُ. وَاللِّزَامُ: اَلْفَيْصَلْ جِدًّا"[١]. وجاء في "القاموس المحيط" أن الالتزام "هُوَ لَزِمَهُ كَهَمْزَة أَيْ: إذَا لَزِمَ شَيْئًا لَا يُفَارِقُهُ"[٢]، أذن الالتزام يعني التعلق بالشيء، والمداومة عليه، وعدم مفارقته.

وقد اختلف الفقهاء في تفسيره معنى الالتزام من الناحية الاصطلاحية، إذ يرى الروائي والصحفي الأميركي "نورمان ميلر" **(Norman Mailer)** بأن الالتزام هو "نوع من التعاقد أو الارتباط بشيء خارج الذات"، بينما يرى الشاعر الاسكتلندي "هيوماكد يارميد" **(Humaced Yarmed)** بأن الالتزام "هو الالتزام السياسي والجهاد في سبيله وتسخير الأدب للدعوة له"[٣]، في حين يرى الدكتور "محمد غنيمي هلال المراد" بأنه "التزام الشاعر ووجوب مشاركته بالفكر والشعور والفن في القضايا الوطنية والإنسانية، وفيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال"[٤].

وقد جاء في موسوعة "لاروس" **(Larousse)** أن "الملتزم: هو الذي يتخذ موقفاً من النزاعات السياسية والإجتماعية، معبراً عن إيديولوجية طبقةٍ ما، أو حزبٍ أو نزعة... والالتزام: هو المشاركة في القضايا السياسية والإجتماعية"[٥]، وجاء في "المعجم الأدبي" أن الالتزام هو "حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال من التأييد الداخلي إلى التعبير الخارجي عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار وتكون هذه الآثار محصلاً لمعاناة صاحبها ولإحساسه العميق بواجب الكفاح والمشاركة الفعلية في تحقيق الغاية من الالتزام"[٦].

أما مفهوم الالتزام الإسلامي في الشعر فأن الإسلام هو دين الالتزام والانقياد إلى طاعة لله والتخلص من الشرك، وأن مصدر الالتزام ينبثق من الدين الإسلامي، ومن رغبة الشاعر المسلم في مرضاة خالقه وخشية عقابه، وأن صلاح الأقوال أو فسادها يترتب عليه الثواب والعقاب، كما في قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً"(٧)، وفي الحديث النبوي الشريف أشار الرسول(ص) قائلاً: "إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ"(٨).

إن مفهوم الالتزام الإسلامي في الشعر هو أن يصدر الشاعر المسلم في فن الشعر من خلال نظرة الإسلام للخالق ومخلوقاته(٩)، ولا بد أن تتوافر في الشعر الملتزم صفات يشترطها النقاد من الوزن والقافية وخصوبة الخيال، وجمال الصورة، فضلاً عن احتراز الشاعر المسلم في أن يصدر في فن الشعر رؤية مخالفة للإسلام مثل العقائد فاسدة، ويجب على الشاعر المسلم التحلي بالأخلاق الإسلامية، وأن يشيد بأعلام الدين ضد المنافقين والملحدين، وأن يحث المسلمين على التعاون، إذ أن الإسلام يشتمل على تصوراً خاصاً للحياة، وأن الشعر الذي ينشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام(١٠).

يتبين أن الالتزام الإسلامي يستمد مقوماته من الإسلام، ومن إدراك الشاعر المسلم لأصول الشريعة الثابتة، ويكون الالتزام بقدر أيمان الشاعر بالحكم الإسلامي العظيم ومقاصده السامية.

الفقرة الثانية: التمايز ما بين الالتزام والإلزام

إن الالتزام في اللغة يعني عدم مفارقة الشيء، أما الإلزام فقد أشار قاموس "تاج العروس" بأنه "اَلتَّبْكِيتُ. وَاللَّازِمَ: مَا يَمْتَنِعُ اِنْفِكَاكُهُ اَلشَّيْءُ. وَالْجَمْعُ: لَوَازِم"(١١)، إذ يكون في الإلزام المداومة على الشيء، المصحوب في الغالب بالإكراه، لهذا لا يكون لدى الشخص المُلزم تعلق بما ألزم به، ولا رغبة فيه، بينما ينبع الالتزام من الرغبة الشخصية الطواعية المتوافقة مع فطرة الإنسان، كونه قائم على القناعة، وليس على فرض الأمر الواقع الذي يقض مضجع المُلزم.

إن الالتزام الإسلامي في الشعر لا يرغم على الشاعر المسلم، لأن التكيف الشعوري الذي يعنى بالتصور الإسلامي الإبداعي للحياة يظهر تلقائياً عن النفس لا على وجه الإلزام والإرغام، لكن وجه التعبير الذاتي عن حقيقة هذه النفس يختلف فأحياناً يكون صلاة في المحراب، أو سلوكاً مع الناس، أو عملاً فنياً(١٢)، وما دامت أركان الإسلام متحققة في الشاعر فإن الالتزام يتحقق طبيعياً بموجب الفطرة

إن التزام الشاعر المسلم هو صفة من صفات عقيدته حيث ينبع من يفيض وجدانه، فمعايير الخير والشر والحق والباطل ثابتة لدى المسلم، وأن موازين الجمال والقبح مستقرة في نفسه، فهو ملتزم أمام الملك الديان، حيث يمضي بعقيدة توجه عاطفته، ويهتدي بشريعة لا غموض فيها ولا التواء، ولا يعتريها التبديل ولا التغيير، كما أن المنهج الإسلامي للالتزام لا يقتصر على الدعوة إلى فكرته، وإن كان ذلك في

ضروراته، وإنما هذا مجال واحد من مجالاته الواسعة، وحقل من حقوله الخصبة، وليس شرطاً من شروطه اللازمة، إذ أن مناط الالتزام الإسلامي ليس مقيداً في موضوع دون سواه، لكن العبرة بطريقة المعالجة، بحيث تنبثق من خلال التصور الإسلامي ولا تجافيه(١٣).

لذلك فأن المنهج الإسلامي السديد في الالتزام يؤدي إلى وضوح عمق الإدراك للشاعر وبروز شخصيته وصدق عاطفته، وإذا التزم الشاعر المسلم بالأخلاق السامية والصفات النبيلة، وجعل المبادئ سمة لأشعاره فأن سائر أفراد المجتمع المسلم سوف ينظرون له نظرة المقتدي، ويستمعون إليه سماع فخر وإعجاب(١٤)، فالالتزام يقي الشاعر شر الهفوات التي يمتد ضررها إلى سائر أفراد المجتمع المسلم، فقد حث الدين الإسلامي على المحافظة على السمات الحميدة والتعاون على البر والتقوى، ودعا إلى الوقوف بحزم أمام الآثام والعدوان، وقد استثنى الخالق الشعراء المؤمنين من عموم الذم الذي يصدر بحق الشعراء، وعملهم بمقتضياته من صالحات الأقوال والأفعال، فأشار الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم: "وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴿٢٢٧﴾"(١٥).

وخلال حكم الرسول(ص) والخلفاء برز الموقف الحازم في كبح جماح الشعراء الغاوون الذين لا يعتدون بالدين الإسلامي، إذ أن ولي الأمر صاحب السلطة العليا في الدولة الإسلامية أنيطت به مسؤولية رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد، وفي المقابل أخذ الشعر الملتزم على اعتباره سلاحاً من أسلحة الحرب الإسلامية، وعدة من اعتدت النصر، وهذا الأمر حفز طائفة من مفكري الأمة الإسلامية وأدباءها على المناداة بالتزام الشعراء بالفضائل الإسلامية والدعوة إليها، ومزج الفن الشعري بالمتعة البريئة والحنكة النافعة، حفاظاً على الآداب العامة، وصوناً للأخلاق الناشئة(١٦).

يتضح أن الالتزام الإسلامي في الشعر يكون ذاتياً في شخصية الشاعر المسلم القائمة على الصفات التراكمية التي تبنى عليها من أصول الدين الإسلامي الحنيف، فالالتزام الطوعي يقوم على الرغبة الصادقة في تنفيذ الأمور بعيداً عن الإلزام القهري الذي يتضمن شرط التنفيذ.

المطلب الثاني

مقومات الالتزام عند الشاعر دعبل

يشاطر الشاعر المسلم الملتزم الناس همومهم الإجتماعية ومواقفهم السياسية، ومن أبرز الشعراء الملتزمين هو "دعبل الخزاعي" الذي حمل لواء الدفاع عن مبادئه دون هوادة، حيث دافع عن قضية أهل البيت(ع) عبر عن تجليات الالتزام على مستوى مضمون القصائد، فقد توجه الشاعر بعاطفته الجياشة إلى

آل البيت(ع)، ووصف ما حلّ بهم من جور وظلم من خلال تشكيلات لغوية متنوعة تنبض بالجِدّة بسبب انبثاقها عن نفس صادقة. وبناء عليه، سوف نقسم هذا المطلب على فقرتين، هما: الفقرة الأولى، المسيرة الذاتية في حياة دعبل. والفقرة الثانية، الالتزام في تائية دعبل.

الفقرة الأولى: المسيرة الذاتية في حياة دعبل

ولد الشاعر "محمد دعبل بن علي بن رزين" الملقب بـ"دعبل الخزاعي" في مدينة الكوفة سنة ١٤٨ هـ، وعاش في بيت السؤدد والفضيلة، إذ تشرفت عائلته بخمسة شهداء، هم: "نافع بن بديل" الذي استشهد على عهد الرسول(ص)، و"عبد الله بن بديل بن ورقاء" الذي كان مع أخواه "عبد الرحمن ومحمد" مبعوثين الرسول(ص) إلى اليمن، وكانوا الثلاثة وأخوهم "عثمان" من فرسان الإمام علي(ع) في معركة صفين(١٧).

ونشأ "دعبل الخزاعي" في بيت اختص بالشعر فأبوه وجده من شعراء عصرهم، وعمه "عبد الله بن رزين" أحد الشعراء، وأبن عمه "محمد بن عبد الله" الملقب بـ"أبي الشيص" له ديوان، واستقى "دعبل" من هؤلاء أبجديات الشعر وأصوله، وفهم معانيه، وحفظ الكثير من الأبيات والقصائد، وعاهد نفسه إلا ينظم الشعر إلا بعد أن ينهل من منابعه الأصيلة(١٨)، لذلك سافر إلى الحجاز وخرسان سنيناً طويلة.

وأصبح "دعبل الخزاعي" نابغة في الأدب والتاريخ والشعر الذي صار يُستشهد به في إثبات معاني الألفاظ ومواد اللغة، كما اشتهر بروايته للحديث، وشاع صيت كتابه بعنوان: "الواحدة في مناقب العرب ومثالبها، وعد كتابه بعنوان: " طبقات الشعراء" مرجعاً في الأدب والتراجم، واعتبرت قصيدة "مدارس آيات" إحدى قمم البلاغة العربية في الشعر وأفخر المدائح في أهل البيت(ع)(١٩).

وأسهمت المجالس الأدبية التي شارك فيها "دعبل الخزاعي" في صقل ذوقه الأدبي، ونيله مكانة علمية مرموقة، حتى روي أن النحوي "أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر" الملقب بـ"المبرد" يقبل يدي "دعبل" تعظيماً وإعجاباً بشاعريته ومكانته العلمية(٢٠)، وخاصة في مجالس الكوفة التي كانت مركزاً لعلماء اللغة والفقه، وموطن الثورة المستمرة، ومحفلاً للمفاهيم السياسية.

ويعد "دعبل الخزاعي" من مشاهير شعراء العصر العباسي، إذ امتاز بالجرأة والشجاعة والصراحة والصرامة في الحق، والتعلق بآل البيت(ع)، وهذه الصفات جعلته شاعراً ملتزماً في مزايا عدة، أبرزها: الرؤية الناقدة المتجسدة في اللغة الشعرية الكاشفة الساخرة، والجرأة على قول هذه اللغة والثبات عليها مهما كلفه ذلك من مشاق، فكانت قصائده مرآة لمشاعر المجتمع وأفكاره، وصور ناطقة عما يعانيه المجتمع من آلام ونكبات، وكان شعره فذاً عميق الصلة بنفسه الجياشة المتمردة على الواقع بدقة الوصف(٢١).

لقد كرس "دعبل الخزاعي" شعره في مدح ورثاء آل البيت(ع)، والدفاع عن مظلوميتهم، والإشارة إلى مناقبهم، وما نالهم من أذى، فقد ناضل مغتصبي السلطة من بني العباس فلم يرهبه بطشهم إذ استبسل في الدفاع عن عقيدته، فكان شاعراً ملتزماً جانب أهل البيت(ع) فلم يؤثر على حبهم مالاً أو سلطان، كما

نبغ "دعبل الخزاعي" في الهجاء من منطلق ديني وعرف بسلاطة لسانه، فكان صورة لأفكاره ومواقفه ضد السلطة الحاكمة، مما ينم عن مدى جرأة الشاعر فلم يخف في الله لومة لائم في سبيل الدفاع عن آل البيت(ع) وأحقيتهم في الحكم، إذ لم يسلم عليه أحد من الخلفاء، ولا وزرائهم، ولا أولادهم(٢٢).

يتبين مما سبق أن الشاعر "دعبل الخزاعي" نشأ في بيئة أدبية أسهمت في بلورة شخصيته الشعرية القائمة على الالتزام في الدفاع ضد الظلم والاستبداد الذي مارسته السلطة الحاكمة.

الفقرة الثانية: الالتزام في تائية دعبل

القى الشاعر "دعبل الخزاعي" قصيدة طويلة بين يدي الإمام "علي بن موسى الرضا"(ع) في خراسان سميت بـ"تائية دعبل"، وأعدها بدافع الشعور بالحزن الدائم على النكبات والكوارث التي أصابت أهل البيت(ع) في مختلف ديارهم وأدوارهم(٢٣)، ويشال أنه كتب القصيدة في ثوب وأحرم فيه، وأوصى بأن يكون في أكفانه، والتائية لا تنفصل عن قضايا المجتمع حيث تنم عن مظاهر الالتزام الفكري، وهي أسنى المدائح(٢٤).

وامتازت قصيدة "تائية دعبل" بقوة التأثير الأدبي حيث بنيت على العاطفة الصادقة والإحساس الجياش الذي تم التعبير عنه بصياغة جمالية ذات محتوى رمزي، وتعد التائية من أهم عناصر الأدب العباسي وأكثرها تأثيراً في ما قيل في رثاء أهل بيت النبوة(ع)(٢٥)، إذ أن العاطفة غالباً ما تقترن بالانفعال الذي يؤسس لقول الشعر بأغراضه المتعددة، لا سيما في الرثاء حيث تكون العاطفة أصدق فهي إحدى دوافعه، وبفضلها كان الرثاء أجود أشعار العرب(٢٦).

إن "تائية دعبل" تضمنت تصوراً إبداعياً للعواطف الإنسانية القائمة على التوصيف المأساوي للفاجعة التي طالت رموز الأمة الإسلامية، حيث يتدرج الشاعر من إحصاء مناقب أهل البيت(ع) ووصف أخلاقهم الحميدة، مقابل هجاء أعدائهم من خلال تعداد عيوبهم وذم أخلاقهم والتنديد بفواحشهم، وكان الشاعر "دعبل" يرى أن أغلب الناس المقربين من السلطة منافقون منحرفون عن الحق ميالون إلى الظلم، ولا يصح أن يتعامل الشاعر معهم بغير العنف، فضلاً عن أن كينونة الشاعر ومكانته لا يقومان على المديح وتقبيل الأيادي، ومداراة زمر المنحرفين عن الحق(٢٧).

وبناء عليه، اتخذ الشاعر "دعبل الخزاعي" الهجاء أداة لإقامة كيان شعري مستقل، وفرضه على المنحرفون ومواجهتهم بواقعهم بكل شجاعة، ولم يكن هجاؤه للأعداء بدافع المكاسب الشخصية، بل كان يمثل رؤية منتظمة في سياق حركة تاريخية دينية وسياسية واجتماعية(٢٨).

واشتملت "تائية دعبل" على ثنائيات ضدية عدة تلتقي في ثنائية ضدية كبرى استخدم فيها الشاعر آلية التضاد لتحقيق العمق الدلالي، إذ يتجسد الطرف الأول من الثنائية في آل البيت(ع) حيث التركيز على مناقبهم السامية، وحقوقهم المسلوبة، وظلامتهم المتكررة، أما الطرف الثاني يتجسد في أعداء أهل

البيت(ع)، وهو المنافقين الذين مارسوا القهر والتسلط في محاولة لإلغاء الحقوق الأصيلة(٢٩).

وتدور أغلب المعاني في قصيدة "تائية دعبل" حول الرثاء في التفجع على أموات أهل البيت(ع) وإبداء الحزن على فراقهم، وتصوير الخسارة عن فقدانهم، لكن اقتران الرثاء بالحزن على الأموات لا يعني أنه الجانب الوحيد في التوصيف فقط، وإنما يوجد جانب آخر هو المديح للأموات من خلال استذكار حسناتهم، وحسن أفعالهم، وتعداد فضائلهم، فالرثاء مدح حزين، ولا فرق بينه وبين المديح سوى في المعنى، كما أن الرثاء فن يقوم في الأصل على الثنائيات، فالطباق يناسب الرثاء في العادة، لأن من شأن الرثاء أن يقارن بين ما كان وما كائن، ويتأمل الحاضر ويقارنه بالماضي، مما يتطلب استدعاء الكثير من الثنائيات الضدية المتصلة بالأحوال المرئية سواء أكان شخصاً أم مدنية أم غيرهما(٣٠).

يتضح مما سبق أن قصيدة التائية تعد من أرقى المدائح في أهل البيت(ع)، والتي تقوم على الواقعية الوصفية التي لا تنعزل عن هموم المجتمع حيث دلت على مظاهر الالتزام الفكري في الشعر.

المبحث الثاني

الالتزام الإيجابي في تائية دعبل

يوظف الشاعر منجزاته الأدبية في سبيل دعم قضايا أمته من منطلق الالتزام، إذ يشترك مع الفئات الإجتماعية في معالجة المشاكل السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية، فقد عرف الأدباء العرب القدماء التزامهم بقضايا القبيلة والدفاع عنها، ثم عرف الشعراء العرب بعد مجيء الإسلام برفع راية الولاء للأمة الإسلامية والذود عن المقدسات، كما أن بعض الشعراء العرب يمتازون بمواكبة التحولات السياسية التي ترافق عمليات استبدال أنظمة الحكم، والدفاع عن المظلومين والمضطهدين.

ويعد الشاعر "دعبل الخزاعي" من أبرز الشعراء العرب الملتزمين في العصر العباسي، خاصة في الدفاع عن الحقوق المسلوبة لأهل البيت(ع) وإبراز مظلوميتهم، مقابل هجاء أعدائهم في السلطتين الأموية والعباسية في قصيدة "التائية" التي تميزت بتجلياتها اللفظية الدلالية، فقد توجه الشاعر بعواطفه الجياشة ومواقفه القائمة على الوقائع الثابتة للدفاع عن قضايا آل البيت(ع) وتوصيف انكسارهم، بواسطة تشكيلات لغوية متنوعة جعلت قصيدة "التائية" تنبض بالجدة كونها صادرة عن نفس صادقة.

وبناء عليه، سوف نقسم هذا المبحث على مطلبين، هما: المطلب الأول، البناء المنهجي في تائية دعبل. والمطلب الثاني، البناء اللغوي في تائية دعبل.

المطلب الأول

البناء المنهجي في تائية دعبل

توزعت قصيدة "تائية دعبل" بين الرثاء والمديح والبكاء، وهجاء الأعداء الذين مارسوا السلب والقتل والسبي ضد أهل البيت(ع)، وقد امتلك الشاعر قدرة في إفاضة القصيدة تمثلت بتجزئة الأفكار وتراكم الصور من حيث الانطلاق من البكاء الجماعي على أهل البيت(ع) وهجاء خصومهم من الأمويين والعباسيين، ثم يستعرض بطولات الإمام علي(ع) في الدفاع عن بيضة الإسلام، ويشير إلى ديار أهل النبوة وساكنيها، والتطرق إلى المعضلة الكبرى في واقعة الطف حيث خيانة أهل البيت(ع)، ثم يعرج على فضائل أهل البيت(ع) وصفاتهم الحسنة والولاء لهم. وبناء عليه، سوف نقسم هذا المطلب على فقرتين، هما: الفقرة الأولى، التقسيم النسقي. والفقرة الثانية، تجربة الطلل الفني في استلهام الموروث.

الفقرة الأولى: التقسيم النسقي

قسم الشاعر "دعبل" قصيدة "التائية" إلى مقاطع عدة بدأت في الأبيات من (١ – ١٠)، بمقدمة طلليه تقوم على الترابط الزمني بين الماضي والمستقبل، والنحيب الجماعي على أهل البيت(ع)، فيقول:

"تَجاوَبنَ بِالإرنانِ وَالزَّفَراتِ نَوائِحُ عُجمِ اللَّفظِ وَالنَّطِقاتِ"(٣١)

ويبدأ الشاعر في المقطع الثاني من القصيدة في الأبيات من (١٠ – ٢٠)، حيث يتناول أعداء أهل البيت(ع) من الأمويين والعباسيين فيذكرهم بالاختلالات البنيوية في أصولهم التاريخية، كما يشير إلى طباع أمهاتهم الثابتة غير القابلة للتغيير، ويستعرض صفات الغدر والتزييف والضلال فيهم، فضلاً عن تأكيده على بيعة السقيفة التي حاولت تغيير موازين السلطة، قائلاً:

"وهِنْدٍ، وَمَا أَدَّتْ سُميَّةُ وابنُها أولو الكفرِ في الإسلامِ والفجراتِ؟"(٣٢)

ويتحدث الشاعر في المقطع الثالث الذي يضم الأبيات من (٢١ – ٢٧) عن فضائل الإمام (ع) وبيعة الغدير، ثم يستعرض بطولات الإمام في الدفاع عن الإسلام وما نزل باستقامته من القرآن، خاصة أنه لم يسجد للأصنام في وقت كان القوم من مناوئيه عاكفين على عبادة الأصنام، فيقول:

"فإنْ جَحدُوا كانَ الْغَدِيرُ شهيدَهُ وبدرٌ وأحدٌ شامخُ الهضباتِ"(٣٣)

ويعود الشاعر في المقطع الرابع في الأبيات من (٢٨ – ٤٤) إلى البكاء على آل البيت(ع) ويستذكر الديار التي نزل فيها الوحي وساكنيها، وإذا بأهلها قد تفرقوا، لذلك راح يستوقف الصحب لسؤال الدار عن الصوم والصلاة التي كانت تقام في ديار نزول الوحي. وينتقل الشاعر إلى المقطع الخامس الذي يشغل الأبيات من (٤٥ – ٥٢) التي تتحدث عن الحقد الذي يضمره أعداء آل البيت(ع)، ويصلي على الرسول(ص) ما خلد الدهر، فيقول:

"نَبيّ الهدَى، صَلَّى عَليهِ مليكُهُ وَبَلَّغَ عنَّا روحَه التُّحفَاتِ"(٣٤)

ويتحدث الشاعر في المقطع السادس في الأبيات من (٥٣ – ٦٧) عن المصيبة الكبرى في استشهاد الإمام "الحسين بن علي"(ع) وآله وصحبه، إذ يبدأ الشاعر بنداء السيدة "فاطمة الزهراء"(ع)، ثم يعدد قبور أهل البيت(ع)، ومن فقضى شهيداً في سبيل الله، فيقول:

"أفاطمُ قومي يا ابنةَ الخيرِ واندبي نُجُومَ سَمَاواتٍ بأَرضِ فَلاَةِ"(٣٥)

ويشير الشاعر في المقطع السابع في الأبيات من (٦٨ – ٧٨) إلى فضائل آل البيت(ع)، ويهجو أعدائهم الذين حرموهم حقهم، فيقول:

"خلا أَنَّ مِنهمْ بالمَدِينَةِ عُصبة مدينين أنضاءًا من اللزبات"(٣٦)

ويعلن الشاعر في المقطع الثامن في الأبيات من (٧٩ – ١٠٠) الولاء لأهل البيت(ع) مستذكراً بالحزن والبكاء ما حل بهم من بلوى مسترشداً بخلو ديارهم وسبي نسائهم، قائلاً:

"تخيرتهمْ رشداً لنفسي إنهم على كلَّ حالٍ خيرةُ الخيراتِ"(٣٧)

ويستذكر الشاعر في المقطع التاسع والأخير الأبيات من (١٠٠ – ١٢١) قضية الإمام المهدي(ع) وأن خروجه لا محالة ليعيد الحقوق إلى أصحابها، ويعرض عن جدال المشككين في هذه القضية، لأن قلوبهم أحجار صلدة؛ فهم بين عارف حق أهل البيت(ع) لم ينتفع، أو معاند ينحرف مع الأهواء والشبهات، وأن الشاعر غير مبال بالموت، لأن عقيدته الولاء لآل البيت(ع)، فيقول:

"فإنْ قُلتُ عُرْفاً أَنْكَرُوهُ بِمُنكرٍ وغَطَّوا عَلَى التَّحْقِيقِ بالشُّبَهاتِ"(٣٨)

إن قصيدة "التائية" لم تلتزم عدد محدد من الأبيات فقد اعتمد طول كل مقطع على انفعال الشاعر إزاء المضمون الذي يسعى إلى توصيفه، فالتقسيم القائم على المشاعر الفنية في مقاطع يمثل رافد أساسي في استعراض الجوانب الفكرية والنفسية المتعددة المضامين، وهذه الطريقة في البناء الشعري تعطي الشاعر فرصة لامتداد القول إلى أقصى ما يريد، وتجعله حراً في اختيار زاوية الانطلاق الشعري، وحرية اختتام القصيدة متى يشاء، وتعطي للشاعر حيزاً في توزيع تدفقه اللغوي من خلال قنوات مختلفة تعبر عن التأجج العاطفي الذي يتفاعل في نفسه، ويتصل بقدر من الوعي يقود ذلك الانفعال(٣٩).

إن اقتران عواطف الشاعر مع سيرة أهل البيت(ع) التي تزخر بالمواقف والتجارب أعطى قصيدة "التائية" زخماً في المضمون والاستمرار في الحديث، ناهيك عن إلمام الشاعر بجميع جوانب قضية أهل البيت(ع) ورغبته في التصدي لتوضيح كل أبعادها مما فرض على القصيدة أن تكون طويلة، فقد عالجت "التائية" جوانب موضوعية ماثلة للمتردد في حياة الأمة الإسلامية بغض النظر عن طول المقطع أو قصره، إذ أن الملكة الشعرية عند "دعبل الخزاعي" مكنته من تبويب الأفكار وتوزيع الصور، فقد عكست "التائية" الخيال الخصب والمضامين الوافرة للشاعر في توصيف حركة الإصلاح في المجتمع الإسلامي(٤٠).

يتبين مما سبق أن قصيدة "التائية" توزعت بين مقاطع عدة اعتمدت على الحنين والرثاء والمديح لأهل البيت(ع)، مقابل الهجاء للأعداء والخصوم الذين اغتصبوا السلطة وانتهكوا المقدسات والحرمات.

الفقرة الثانية: تجربة الطلل الفني في استلهام الموروث

تعد المقدمة الطللية أحد أبرز أعمدت البنية الفكرية والفنية لمكونات الافتتاح في القصيدة، الذي يتوقف على التأثير بنوعية التجربة ومدى الإحساس بها، والمستوى الإبداعي للشاعر وما تشير إليه من دلالات ومعان، وفي العصر العباسي حدث تحولاً في المكان القديم "الطلل" إلى المكان الحديث "المكان المدني"، وأصابه التجديد سواء من الناحية الموضوعية أم من الناحية الفنية(٤١).

إن "الطلل" عند الشاعر "دعبل الخزاعي" يتجسد في صور عدة، أبرزها: "العرصات واد بين منى والمزدلفة، عرفات، السقيفة، غدير خم، بدر، أحد، رسم الدار من عرفات، مدارس آيات، منزل وحي، ديار علي والحسين، ومنازل للوحي والهداية والصلاة والتقى". إذ يبدأ الشاعر مطلع القصيدة بالبكاء الجماعي التفاعلي على الديار التي رافقت مسار القصيدة، وكان اختيار هذه الديار اختياراً فكرياً وفنياً، لأنها ديار تتميز بخصوصية دينية تدل على المثال والكمال، وتعبر عن رمزية الصلة بين السماء والأرض، ويتجلى الارتباط العميق للمكان بالزمان في إطلالة قصيدة "التائية" وديارها ومنازلها، فهذه الديار تستحضر لارتباطها بالزمان الماضي، ولكونها إشارة في سياق الزمن، وهكذا يتبنى المكان شخصيه زمانية حيث يكون الزمان والمكان قد شكلا النص الإبداعي والمعنى النفسي والتأملي في النص الأدبي(٤٢)، فيقول:

"قفا نسألِ الدارَ التي خفَّ أهلها متى عهدها بالصومِ والصلواتِ؟"(٤٣)

إن تجربة الإطلال والديار والقبور التي رافقة طول قصيدة "التائية" تمثل نقطة ارتكاز حركة الزمان عن طريق الإشارة إلى ما جرى في المكان، فقد ربط الشاعر بين المحور الموضوعي "شط الفرات، القبور" والحالات النفسية والقيم الشعورية فأخضع مصاديق المكان لحركة النفس وحاجاتها، ثم إعادة ترتيبها وتفعيل حيويتها وفق مشاعره التصورية(٤٤)، فيقول:

"قُبورٌ بِجَنبِ النَهرِ مِن أَرضِ كَربَلا مُعَرَّسُهُم مِنها بِشَطِّ فُراتِ"(٤٥)

إن دلالات "الطلل" في قصيدة "التائية" جعلت مقاطعها الشعرية متداخلة إذ كتبت بديمومة مع تعدد مقاطعها، حيث تجر عن موقف كلي موحد في ظل المشاعر والبواعث والأهداف المتناسقة التي تبحثها الديار والمنازل، لهذا فأن الشاعر لم يلتفت إلى التخلص من مقطع شعري إلى مقطع آخر.

يتضح مما سبق أن قصيدة "التائية" عبرت عن مضامين حقيقية ومشاعر صادقة لا تشعر المتلقي بنهايتها بحكم ارتباط الأطلال والديار بالمضامين، وإثارتها للمشاعر والانفعالات التي تؤكد استمراريتها.

المطلب الثاني

البناء اللغوي في تائية دعبل

إن مهمة الشعر هو التعبير عن الأحاسيس ونقلها إلى المتلقي، أما عن طريق سرد الأحاسيس في نفس المتلقي، أو التأثير في عواطفه، إذ يجسد البناء اللغوي للقصيدة القدرة على استدعاء المشاعر والمواقف الانفعالية للشاعر والمتلقي، وعليه فأن الشاعر "دعبل الخزاعي" استخدم ثنائيات متقابلة بالتضاد في بناء أبيات قصيدة "التائية"، حيث الممدوح المرثى الذي يمثل الإيمان والخير، مقابل المهجو الذي يمثل الكفر والشر، وتمتزج هذه الثنائيات مع عواطف الحب مقابل البغض. وبناء عليه، سوف نقسّم هذا المطلب على فقرتين، هما: الفقرة الأولى، لغة التضاد في الرثاء. والفقرة الثانية، تمكين اللغة الدالة على الجمع.

الفقرة الأولى: لغة التضاد في الرثاء

يعرف التضاد بأنه "ضِد: اَلضِّدُّ كُلَّ شَيْءٍ ضَادِ شَيْئًا لِيَغْلِبهُ، وَالسَّوَادُ ضِدَّ اَلْبَيَاضِ، وَالْمَوْتُ ضِدَّ اَلْحَيَاةِ؛ تَقُولُ: هَذَا ضِدَّهُ وَضْدِيدَهْ، وَاللَّيْلُ ضِدَّ اَلنَّهَارِ إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَاكَ، وَيَجْمَعَ عَلَى اَلْأَضْدَادِ"، ويعرف الطباق بأنه "اَلْجَمْع بَيْنَ مَعْنِيَيْنِ أَحَدُهُمَا مُثْبَتٌ وَالْآخَرُ مَنْفِيٌّ، أَيْ مَا اِخْتَلَفَ فِيهِ اَلضِّدَّانِ إِيجَابًا وَسَلْبًا"، وتعرف المقابلة بأنها: "اَلْإِتْيَان بِكَلِمَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ثُمَّ اَلْإِتْيَانِ بِضِدِّهِمَا"[٤٦].

ويعد التضاد من أهم عوامل الإبداع الشعري، وهو أوسع في الدلالة على خلاف الطباق والمقابلة، فهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام سواء أكان ذلك طباقاً بين الألفاظ أم مقابلة بين الصور، وأن الجمع بين الأمور المتضادة يعطي الكلام جمالاً ويزيده بهاء ورونقاً[٤٧]، ويمتلك التضاد القدرة على إثارة المشاعر الحيوية التي تتصل بالفكرة العامة للموقف داخل السياق الأسلوبي، وهي وسيلة لإثراء النص الشعري بما يضفيه التضاد من معرفة وما يمنحه من عمق دلالي من حيث إبراز المعاني الواضحة الجلية، إذ أن مقابلة اللفظة بما يضدها تكتسب عمقاً دلالياً ودقة معنوية[٤٨].

إن التضاد من أكثر الأدوات التعبيرية التي وظفها الشاعر لتوصيل أفكاره ورصد رؤياه على الصعيد الدلالي، فالثنائيات المتضادة والجدلية التي تتخللها تمتاز بقيمتها الفنية المعنوية، إذ تصبح منطلقاً لوعي نقدي أعمق لا يكتفي بمحاولة فهم الظواهر بل يغوص على بنيتها الضدية، لذلك استخدم الشاعر التضاد في قصيدة "التائية" بسبب طبيعة موضوعها القائم على المعارضة والنقض، ولارتباطه بذاته ومعاناته النفسية، وحالة الأسى التي يعانيها كون التعلق بآل البيت(ع) والولاء لهم جريمة يحاسب عليها من السلطة[٤٩].

وجعل الشاعر التضاد أساساً لبناء القصيدة "التائية" ليعزز التوافق الدلالي في النص بين شيئين يتضادان في الظاهر ويلتقيان في العمق، فأما أن يجمع الشاعر المتضادين فيكون الضد بإزاء الضد الآخر في بيت واحد أو في بيتين، فيقول:

"تَجاوَبنَ بِالإرنانِ وَالزَّفَراتِ نَوائِحُ عُجمِ اللَّفظِ وَالنَّطِقاتِ"(٥٠)

أو أن يكون سياق البيت الشعري جامع للضدين، فيقول:

"وللخيلِ لم قيّد الموتُ خطوها فأَطْلَقْتُمُ مِنهُنَّ بالذَّرِباتِ"(٥١)

واستخدم الشاعر التضاد في "التائية" لإيصال أفكاره إلى المتلقي عبر طريقين، هما: الأول، وصف أحد الضدين بأبيات عدة ثم الانتقال إلى الضد الآخر، إذ يصف جحد وإنكار أعداء آل البيت(ع) لوصية الرسول(ص)، ثم ينتقل إلى مقابلته بالتضاد بذكر المناقب التي تشهد على حقهم بالوصاية بقوله:

"وما نالَ أصحابُ السقيفة جهرة بدعوى تراثٍ، بل بأمرِ تراتِ
ولو قلَّدُوا المُوصَى إليهِ أمورها لَزُمَّتْ بمأمونٍ مِن العَثَراتِ"(٥٢)

أما الثاني وضع الضد بإزاء الضد الآخر في نفس سياق الكلام لمفاجئة عقل المتلقي بالأضداد التي تسبب عند إدراك مدلولاتها نوعاً من الحركة الذهنية، وذلك عندما ينتقل الذهن من أبعد نقطة إلى أبعد نقطة من المعاني ويحاول الربط بينها(٥٣)، إذ يصف حال مظلومية آل الرسول(ص)، مقابل حال أعدائهم في متضادات متقابلة بشكل مباشر مما يسبب أحداث حركة في السياق الشعري، فيقول:

"ديارُ رَسولِ اللهِ أَصْبَحْنَ بَلْقعاً وآل زيادٍ تسكنُ الحجراتِ"(٥٤)

إن الأثر الأسلوبي للمقابلات المتضادة واضحاً في "التائية" للوصول إلى معان لا يمكن إيصالها بالألفاظ، وهذه المتقابلات حققت غرض رثاء أهل البيت(ع)، واستلهام الدلالات الكامنة في الحزن المنبعث من أبياتها، لا سيما استذكار المنازل وأصحابها ومناقبهم، والتي تدفع المتلقي إلى معرفة سبب العداء لآل البيت(ع)، كما أن "التائية" تدور في ثنائيات تتحرك باتجاه كشف ثنائية ضدية كبرى وهي ثنائية اليأس والأمل طرفها الأول آل الرسول(ص) ومناقبهم وحقهم السليب، وطرفها الثاني أعداءهم وغاصبي حقهم.

يتبين مما سبق أن "التائية" بنيت في معظم سياقها على التقابل بالتضاد، فهي معيناً لا ينضب يعبر عن أفكار الشاعر وعواطفه في سياق مجهود إبداعي له قيمة فنية ومعنوية.

الفقرة الثانية: تمكين اللغة الدالة على الجمع

إن صيغة الجمع هي "اِسْمِ نَابْ عَنْ ثَلَاثَةٍ فَأَكْثَرَ، بِزِيَادَةٍ فِي آخِرِهِ، مَثَّل: كَاتِبِينَ، وَكَاتِبَاتٌ، أَوْ تَغْيِيرٍ فِي بِنَائِهِ، مِثْلٌ: رِجَالٍ، وَكَتَبَ، وَعُلَمَاءَ، وَهُوَ قِسْمَانِ: سَالِمْ وَمُكَسَّرٍ"(٥٥)، وبما أن الالتزام في الشعر يعبر عن موقف شخص ما إزاء قضية تخص فئة معينة فإن الشاعر يسعى إلى اختيار أدواته اللغوية التي تتعدى نطاق التعبير عن الفردية لتدخل حيز الجماعة حيث يتماهى مع أمالها وطموحاتها(٥٦).

لقد بيت قصيدة "التائية" على الجمع لكن اللافت قلة صيغ جمع المذكر السالم، وكثرة صيغ جمع المؤنث السالم، مثل: "هندات، مرضعات، وفاضلات" حيث وردت ما يقرب (٨٠) لفظة دالة على جمع المؤنث السالم، فيقول:

"على العرصاتِ الخاليات من المها سَلامُ شَج صبٍّ على العَرصاتِ"(٥٧)

ولعل توظيف صيغ الكثرة في الجموع جاء ليتلاءم مع البناء الشكلي للقصيدة، وتعزيز الموقف الشعوري الذي آمن به "دعبل الخزاعي" من حسرات جراء ما أصاب أهل البيت(ع)، وأن الصيغ الدالة على الجمع في القصيدة لم تخرج عن ارتباطها بمحوري القصيدة، هما: آل البيت(ع) وأعداؤهم، ولم تخرج المسندات والأوصاف عن متضادين تدور حولهما عناصر النص الشعري، هما: المدح مقابل الذم.

إن القصائد الشعرية الرثائية القائمة على تكرار مناقب الميت وإظهار التفجع عليه تؤثر في نفس المتلقي، إذ أن التكرار في الجملة يضفي إيقاعاً موسيقياً، وهي وسيلة تعتمد على تأثير الكلمة المكررة في إحداث نتيجة معينة في العمل الأدبي(٥٨)، لذلك ارتبطت ظاهرة التكرار في "التائية" بموضوع الرثاء حيث لازمة معنى الحسرة والتفجع اللذين رافقا غالبية نصوص القصيدة، فيقول:

"مَنازِلُ كانَتْ للصَّلاَةِ وَلِلتُّقَى وللصَّومِ والتطهيرِ والحسناتِ"(٥٩)

يتبين مما سبق أن صيغ الجمع والتكرار أسهمتا في تشكيل الصورة الفنية لإثراء الأبيات وإغناء الإيقاع الدلالي، وجعل معاني القصيدة أعمق تأثيراً، وتشير إلى موقف الشاعر المتمسك بعقيدته وهويته.

الخاتمة

يعد "دعبل الخزاعي" من رعيل الشعراء الملتزمين الذين دافعوا عن قضايا الأمة الإسلامية من دون خوف أو تردد، فقد أخذ الشاعر على عاتقه رفع شعار التصدي لإعداء أهل البيت(ع) ومغرضيهم، وكانت قصيدة "التائية" مؤشراً على عمق الالتزام من خلال الأسلوب الرثائي والهجائي الذي أضفى بعداً دلالياً على لغة أبيات القصيدة، وعبر الشاعر من خلال الثنائيات المتضادة عن التناقض الذي ساد في ذلك المجتمع، خاصة سلب الحق وتكرار الظلم، وسريان الباطل وامتداده، وهذا العمق الدلالي الذي تحقق في القصيدة عبر عن أحاسيس الشاعر القائمة على الحب والبغض والخوف والرجاء.

الاستنتاجات

١- يعد الالتزام من أهم سمات الشعر الإسلامي فالشاعر الملتزم يسهم في تعزيز المبادئ الأخلاقية في المجتمع، أما الشاعر غير الملتزم الذي ينشر الرذيلة والفكر المعوج فيجب إيقافه في كف الأذى وحماية العباد والبلاد من شروره، كما أن الالتزام في الشعر لا تحدده النصوص الشرعية فحسب، وإنما ينبثق من معنى الإسلام ابتداء ومن جملة المفاهيم الإسلامية والقواعد الشرعية العامة.

٢- إن الشاعر "دعبل الخزاعي" من الشعراء الذين آمنوا بقضية أهل بيت الرسول(ص)، وقضى حياته ملتزماً بالدفاع عن مبادئهم وأحقيتهم في الحكم، فكان الشاعر شجاعاً لا يمدح، ولا يداري أهل الباطل،

بل وقف لهم بالمرصاد وهجاهم، فقد وصفت قصيدة "التائية" تنحية أهل البيت(ع) عن الحكم قهراً ومؤامرة، ونددت بالظلم والفساد والنفاق في عهد الدولتين الأموية والعباسية.

٣- لقد سجلت معاني الطلل والرثاء والهجاء ولغة التضاد والجمع حضوراً واسعاً في قصيدة "التائية"، إذ توزعت على كل مفاصل القصيدة واستحالت كل أماكنها وديارها ومنازلها، وارتبطت بأحداث معبرة عن حقائق وانفعالات أبعد من حقائقها الموضوعية الملموسة من خلال الربط المكاني والزماني، فضلاً عن استمرارية القصيدة المعبرة عن مضامين متعددة خالدة تثير الانفعالات وعواطف.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١. القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع العربية

٢. ابن منظور، لسان العرب، ط١، ج١٢، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.

٣. ابتسام مرهون الصفار، جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ط١، عالم الكتب الحديثة، الكويت، ٢٠١٠.

٤. إبراهيم خليل، النص الأدبي تحليله وبناؤه: مدخل إجرائي، ط١، دار الكرمل ، عمان، ١٩٩٥.

٥. أبن المعتز، طبقات الشعراء، ط٢، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.

٦. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ط٥، ج١، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥.

٧. أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط٥، ج١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١.

٨. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ط٢، ج١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢.

٩. أبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، الأغاني، ط٢، ج١٨، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١.

١٠. أحمد أبو حاقة، الالتزام في الشعر العربي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩.

١١. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤.

١٢. حسين جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، ط١، دار العلم، دمشق، ١٩٩١.

١٣. حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤.

١٤. خالدة سعيد، حركية الإبداع: دراسات في الأدب العربي الحديث، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٦.
١٥. دعبل بن علي الخزاعي، ديوان دعبل الخزاعي، تحقيق: عبد الصاحب الدجيلي الخزرجي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٢.
١٦. سناء حميد البياتي، نحو منهج جديد في البلاغة والنقد: دراسة وتطبيق، ط١، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ١٩٩٨.
١٧. سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج، ط٨، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١.
١٨. سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٢، ج٦، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.
١٩. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦.
٢٠. صديق حسن علي الحسيني القنوجي البخاري، عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري، ط٢، ج٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.
٢١. صلاح محمد جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ط٣، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان، ٢٠١٥.
٢٢. طلال أبو غزالة وآخرون، الطلاقة في مهارات اللغة العربية: مرجع شامل وميسر في اللغة العربية ومهاراتها ومؤهل لاختبار الطلاقة، ط١، طلال أبو غزالة للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٩.
٢٣. عبد الجبار المطلبي، الشعراء نقاداً: دراسات في الأدب الإسلامي والأموي، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بيروت، ١٩٨٦.
٢٤. عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ط١، ج٦، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٤.
٢٥. عبد المجيد زراقط، دراسات في التراث الأدبي، ط١، الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٨.
٢٦. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط٤، مكتبة غريب، القاهرة، بلا سنة.
٢٧. لويس عوض، الاشتراكية والأدب، ط١، دار الآداب، القاهرة، ١٩٦٣.
٢٨. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
٢٩. محمد عنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ط١، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧.
٣٠. محمد قطب، مناهج الفن الإسلامي، ط٦، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣.
٣١. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط١، ج١٧، تحقيق: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، الكويت، ١٩٦٥.
٣٢. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ط٣٠، ج١، مراجعة: عبد المنعم خفاجة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٤.

٣٣. ناصر بن عبد الرحمن الخنين، الالتزام الإسلامي في الشعر، ط١، دار الأصالة للثقافة، الرياض، ١٩٨٧.
٣٤. نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، ط٢، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٢.
٣٥. ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج٣، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ط١، ج١٢، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص٥٤١.

(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ص١٤٨.

(٣) لويس عوض، الاشتراكية والأدب، ط١، دار الآداب، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٨٠.

(٤) محمد عنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ط١، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧، ص٤٥٦.

(٥) أحمد أبو حاقة، الالتزام في الشعر العربي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩، ص١٢، ١٣.

(٦) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤، ص٣١.

(٧) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية (٧٠).

(٨) صديق حسن علي الحسيني القنوجي البخاري، عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري، ط٢، ج٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨، ص٢٠٠.

(٩) ناصر بن عبد الرحمن الخنين، الالتزام الإسلامي في الشعر، ط١، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ١٩٨٧، ص١٢٦، ١٢٧.

(١٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٢، ج٦، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٢٤٨.

(١١) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط١، ج١٧، تحقيق: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، الكويت، ١٩٦٥، ص٦٥٠.

(١٢) سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج، ط٨، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص٢٧.

(١٣) ناصر بن عبد الرحمن الخنين، المرجع السابق، ص١٩٢ – ١٩٤.

(١٤) محمد قطب، مناهج الفن الإسلامي، ط٦، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٨٠.

(١٥) القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآيات (٢٢٤) (٢٢٥) (٢٢٦) (٢٢٧).

(١٦) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ط٢، ج١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٣٣١، ٣٣٢.

(١٧) نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، ط٢، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٢٦.

(١٨) عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ط١، ج٦، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٤، ص٣٧٠.

(١٩) أبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، الأغاني، ط٢، ج١٨، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١، ص٢٩.

(٢٠) أبن المعتز، طبقات الشعراء، ط٢، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٦٤.

(٢١) عبد المجيد زراقط، دراسات في التراث الأدبي، ط١، الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٨، ص١٣٣.

(٢٢) أبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، المرجع السابق، ج٢٠، ص١٢٠.

(٢٣) أبن المعتز، المرجع السابق، ص٢٦٧.

(٢٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج٣، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣، ص١٢٨٤، ١٢٨٥.

(٢٥) إبراهيم خليل، النص الأدبي تحليله وبناؤه: مدخل إجرائي، ط١، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٥، ص٥٥.

(٢٦) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ط٥، ج١، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥، ص٢٢٠.

(٢٧) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦، ص٣٢٤.

(٢٨) عبد المجيد زراقط، المرجع السابق، ص١٦٠.

[٢٩] عبد المجيد زراقط، المرجع السابق، ص١٦٠.

[٣٠] صلاح محمد جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ط٣، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان، ٢٠١٥، ص١٢٩.

[٣١] دعبل بن علي الخزاعي، ديوان دعبل الخزاعي، تحقيق: عبد الصاحب الدجيلي الخزرجي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٢، ص١٢٤، ١٢٥.

[٣٢] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٢٦ – ١٢٨.

[٣٣] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٢٩، ١٣٠.

[٣٤] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٣٣ – ١٣٥.

[٣٥] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٣٥.

[٣٦] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٣٨ – ١٤٠.

[٣٧] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٤٠ – ١٤٣.

[٣٨] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٤٣ – ١٤٥.

[٣٩] عبد الجبار المطلبي، الشعراء نقاداً: دراسات في الأدب الإسلامي والأموي، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بيروت، ١٩٨٦، ص١٨٧.

[٤٠] أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط٥، ج١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١، ص١٨٦.

[٤١] حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤، ص٢٢.

[٤٢] خالدة سعيد، حركية الإبداع: دراسات في الأدب العربي الحديث، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٦، ص٩٢.

[٤٣] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٤٠ – ١٤٣.

[٤٤] عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط٤، مكتبة غريب، القاهرة، بلا سنة، ص٦٥.

[٤٥] دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٣٧.

(٤٦) ابن منظور، المرجع السابق، ج٣، ص٣٢٣.

(٤٧) ابتسام مرهون الصفار، جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ط١، عالم الكتب الحديثة، الكويت، ٢٠١٠، ص٤١٠.

(٤٨) سناء حميد البياتي، نحو منهج جديد في البلاغة والنقد: دراسة وتطبيق، ط١، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ١٩٩٨، ص١٢٣ – ١٢٧.

(٤٩) عبد المجيد زراقط، المرجع السابق، ص١٦٥ – ١٧٤.

(٥٠) دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٣٠.

(٥١) دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٤٣.

(٥٢) دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٢٨.

(٥٣) سناء حميد البياتي، المرجع السابق، ص١٢٩، ١٣٠.

(٥٤) دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٤٣.

(٥٥) مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ط٣٠، ج١، مراجعة: عبد المنعم خفاجة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٤، ص١٦.

(٥٦) طلال أبو غزالة وآخرون، الطلاقة في مهارات اللغة العربية: مرجع شامل وميسر في اللغة العربية ومهاراتها ومؤهل لاختبار الطلاقة، ط١، طلال أبو غزالة للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٩، ص١١.

(٥٧) دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٢٤.

(٥٨)حسين جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، ط١، دار العلم، دمشق، ١٩٩١، ص٢٣٧.

(٥٩) دعبل بن علي الخزاعي، المرجع السابق، ص١٣٣.